

نظرية (المساءلة والبلاغة) لميشال مايير

مقاربة في: الأصول والأسس والتمثيلات

أ.م.د. نعمة دهش فرحان الطائي

كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية/ جامعة بغداد

The Theory and Question of Michel Meyer

Approach in: Assets, Foundations and Representations

Ass. Prof. Dr. NEAMAH DAHASH FARHAN AL-TAIE

College of Education Ibn Rushd for Human Sciences\ University of Baghdad

muhajlkj5733@gmail.com

Abstract

The question is a major catalyst for the nature of human thought, as the movement of mind from the unknown to the unknown, and this movement is not only a question and ask more questions, the question and thinking are two sides of the same coin, namely the way to acquire knowledge, and questioning the trigger of thought, and opens the door of cash that feeds The truth.

It is difficult in scientific research to make use of the question of the mabahith, without considering the eloquence of the dialogue discourse that produced the pilgrims, as an area shared by several interdisciplinary sciences: logic, psychology, communication, linguistics, algebra, geometry, and other sciences. In the narration and interpretations between the two ends of the speech, and produced methods of maneuvering, action and reaction in order to achieve the very persuasion.

It is also difficult to find the interest of this theory, which tells the thirsty thirst of the researcher, and fills the cognitive hunger in studies and research Pilgrimage, as well as.

Hence, the idea of exploration, research, inspection and clarification in the theory of accountability and rhetoric of Michel Meyer based on his author, entitled: (From the science of Alaklp - De La Problematologie) within the threshold of language philosophy and circulation; a new reading in the system of accountability of pilgrims with tools Effective behavior, which means that the function of accountability is applied at the level of the outputs being declared; to achieve the value of the prophetic persuasion.

This research is characterized by the theory of the question and the eloquence of Michel Meyer, an approach in the origins, foundations and representations, according to two studies:

The first subject\ historical origins of (theory of matter and eloquence) and its cognitive extensions.

The second subject\ The theoretical foundations of (theory of matter and eloquence) and their practical representations.

The research concluded with a number of results.

Keywords: Assets, Foundations, Representations, Michel Meyer, Accountability and eloquence.

الملخص:

يُعدُّ التساؤل محفزاً رئيساً لطبيعة الفكر الإنساني، بوصفه حركة الذهن من المعلوم الى المجهول، وهذه الحركة لا تتم الا من التساؤل وطرح المزيد من الأسئلة، فالتساؤل والتفكير وجهان لعملة واحدة، وهما الطريق إلى اكتساب المعرفة، والتساؤل يقدم زناد الفكر، ويفتح باب النقد الذي تتغذى به الحقيقة.

ومن الصعوبة في البحث العلمي تسخير التساؤل في المباحث الحجاجية من دون النظر في بلاغة الخطاب الحوارية الذي انتج الحجاج، بوصفه مجالاً تتقاسمه علوم بينية متعددة، منها: علم المنطق وعلم النفس، وعلم التواصل، وعلم اللسانيات، وعلم الجبر والهندسة، وعلوم أخرى، منحتة اختلافاً في الروى والتفسيرات بين طرفي الخطاب، وانتج أساليب المناورة والفعل ورد الفعل من أجل تحقيق غاية الإقناع.

ومن الصعوبة أيضاً ندرة المؤلفات الحجاجية التي تناولت مبادئ نظرية المسألة والبلاغة والتعريف بأسسها المعرفية ومرجعياتها، وتمثلاتها؛ لذلك لم نجد من الاهتمام بهذه النظرية ما يروي ضما عطش الباحث، ويسد جوعه المعرفي في الدراسات والأبحاث الحجاجية، فضلاً.

ومن هنا جاءت فكرة التقيب والبحث والتفتيش والإيضاح في نظرية (المساءلة والبلاغة) لـ(ميشيل مايير - Michel Meyer) استناداً إلى مؤلفه الموسوم بـ: (من علم الأشكلة - De La Problematologie) ضمن عتبة فلسفة اللغة والتداول؛ قراءة جديدة في نظام المساءلة الحجاجية بأدوات الأشكلة الفعالة، ما يعني اشتغال وظيفة المساءلة على مستوى الملفوظات التي يجري التصريح بها؛ لتحقيق قيمة الإقناع الحجاجية.

فجاء هذا البحث موسوماً بـ(نظرية المسألة والبلاغة لميشال مايير، مقارنة في الأصول والأسس والتمثيلات) على وفق مبحثين،

هما:

المبحث الأول/ الأصول التاريخية لـ(نظرية المسألة والبلاغة) وامتداداتها المعرفية.

المبحث الثاني/ الأسس النظرية لـ(نظرية المسألة والبلاغة) وتمثلاتها العملية.

وخُتمَ البحثُ بعددٍ من النتائج.

الكلمات المفتاحية: الأصول، الأسس، التمثيلات، ميشال مايير، المساءلة والبلاغة.

المقدمة:

يتسم الحجاج بالتعدد؛ نظراً لطبيعته وطرائق اشتغاله، فالحجاج يستدعي الاستدلالات، ويلجأ إلى استعمال اللغة المنطوقة والرمزية، بل يلجأ في أحيان إلى الصمت أو الصورة، ويوظف العلاقات الاجتماعية، ويستثمر النيات والأغراض والاستراتيجيات، ووسائل الإقناع، ويتخذ موقفاً في سياق تواصلٍ اجتماعيٍّ، ويرتبط بتخصصات متعددة: (اللسانيات، والمنطق، وتحليل النصوص، والخطابات، والعلامات، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتواصلية... وهلم جرا؛ مما نتج عن ذلك تعدد في نظرياته ومقارباته واستراتيجياته.

مشكلة البحث:

لا يخفى على اللبيب ذلك التداخل الملحوظ بين أدبيات تلك النظريات، وازدياد حدة التداخلات والتفاعلات يوماً بعد يوم بين أطرها المعرفية؛ إذ ليس الحجاج بغريبٍ عن العلوم اللسانية الأخرى التي ما برحت منذ نشأتها أن أصابها وابل من التعدد والتداخل والتفاعل فيما بينها.

أهمية البحث: ظهرت جملة من النظريات الحجاجية، تمثلت بأربع مقاربات لسانية، هي:

١- مقارنة أخلاقية: وراندها فيليب بروتون - PH Breton، وتركز في البعد الأخلاقي العرفاني.

٢- مقارنة اجتماعية: وراندها كريستيان بلانتان - Christian Plantin، وتركز في عملية التلفظ.

٣- مقارنة إبستمولوجية: ومن روادها جان بليز وجورج فينيو - G.Vignaux، وتركز في البعد الفكري.

٤- مقارنة بلاغية: وراندها (ميشيل مايير - Michel Meyer)، وتركز في البعد البلاغي بدراسة الأولى^(١).

وفي هذا البحث سنحاول أن نجلي الغبار عن المقاربة الحجاجية المتعلقة بنظرية ميشيل مايير المسماة بـ(نظرية المساءلة والبلاغة) ورفع اللثام عما خُفي منها، عبر دراسة الأصول التاريخية، والأسس المعرفية التي تبناها مايير في نظريته، فجاء البحث في مبحثين، هما:

المبحث الأول/ الأصول التاريخية لـ(نظرية المسألة والبلاغة) وامتداداتها المعرفية.

المبحث الثاني/ الأسس النظرية لـ(نظرية المسألة والبلاغة) وتمثلاتها العملية.

1- Philippe Breton, Gilles Gauthier: Histoire des theories de loargmentation, op, cit, P: 95-96.

المبحث الأول/ الأصول التاريخية لـ(نظرية المسألة والبلاغة) وامتداداتها المعرفية:

انطلق (ميشيل مايير - Michel Meyer)^(١) في نظريته: (المسألة والبلاغة) من أصل فلسفي أول، وهو التساؤل، وتطوير مبدأ الاستدلال فيه؛ لتصبح الفلسفة - عنده - "حجاباً ينفلت من النموذج التسويغي للقضوية Propositionalisme ويستوي بالأحرى مع النموذج البلاغي الذي يتموقع فيه النشاط ضمن دائرة المحتمل"^(٢)؛ إذ يرى مايير تداخلاً كبيراً بين المجالات الفلسفية والعلمية والبلاغية، شأنه في ذلك شأن الفلاسفة القدامى في الحضارة الإغريقية، حيث لا يمكن للمعارف الحديثة - في نظره - أن تتجاهل التطور الحاصل في الدراسات اللسانية والبلاغية، "بل إنه يعتقد أنّ المصدر الثاوي وراء البروز القوي والجديد للبلاغة في القرن العشرين يعود إلى أزمة العقلانية الأوروبية، لذلك يصبح اعتبار المكون البلاغي ضرورة في أيّ تجاوز لهذه الأزمة"^(٣)، فجاءت فكرة المسألة حلاً لطبيعة إفرازاتها المعقدة؛ بوصف المسألة عنصراً مفقوداً في اتمام حلقات المعنى ووضوحه؛ لأنّه من المحال في البلاغة الجزم بنحو قطعيّ أن الخطاب يقتصر على المعنى الحرفي دون تفعيل المعنى الضمني؛ إذ لا ينال الخطاب حظّه من الإقناع ما لم يعرض الحجة التي تبرّر وجوده في نطاقها؛ فيجد متلقي الخطاب نفسه أمام مسلكين: مسلك انفعاليّ، ومسلك عقلائيّ، وأمام قسدين: قصد عفويّ، وقصد مبيّ؛ مما يفيد أنّ هناك ظاهراً للخطاب وباطناً، أي إطار في وجهه الصريح، وآخر في سياقه الضمنيّ، ما يفضي إلى تمثّل الوجه الإقناعي من خلال إحدى الوظائف الأتية:

١- الوظيفة العقلية: تركز في منطق بناء الفكرة.

٢- الوظيفة المعرفية: مرتبطة بطبيعة المعلومات المتوصل إليها وحجمها، وأهميتها.

٣- الوظيفة الإمتاعية: على سبيل الإغراء وإشعار المتلقي بنوع من اللذة^(٤).

وقد شهد تعريف الحجاج وعلاقته بالبلاغة تطوراً تاريخياً ملحوظاً، وتحوّلاً من مرحلة إلى أخرى، منذ أعمال كوراكس والسفطائيين في مرحلة التأسيس، ثم أعمال أفلاطون وأرسطو في مرحلة النضج، ووصولاً لأعمال شايم برلمان، وتولمين، وأخيراً أعمال ميشيل مايير في مرحلة التجديد، بفعل تلك التأمّلات المعرفية في مضامينه، وسياقاته^(٥). وخلاصة مجهود تلك الأعمال تجلت بما قدمه ميشيل مايير من تعريفين مترابطين للحجاج، هما:

أ- يعرف الحجاج عادةً بوصفه بهذا إقناعياً، يجعل من البعد الحجاجي أساساً في الاستعمال اللغوي، فيكون كلّ خطاب يسعى إلى إقناع متلقيه.

ب- يعرف الحجاج كذلك بأنّه استدلال غير صوريّ، وغير ملزم، في تعارض مع الاستدلال المنطقيّ، مع الضرورة اللازمة ومن دون استدعاء.

ويعود سبب ترابط هذين التعريفين إلى طبيعة المعنيين؛ إذ لا يقع الحجاج إلا بسبب اختلاف العقول تجاه حتمية الضرورة المنطقية للرياضيات^(٦).

ويبدو لنا أنّ مفهوم الحجاج عند مايير لا يخرج عن السمة الاجتماعية، كونه عقلياً استدلالياً من جهة، وتواصلية إقناعياً من جهة أخرى، تحت مبدأ أنّ الجواب هو سؤال مفترض في نفسه، موجّه لجمهور المتلقين، وقد عبر عن ذلك بطريقة مماثلة بقوله:

١ - وهو عالم فرنسي شغل منصب أستاذ في جامعة بروكسيل، ومديرًا للمجلة الدولية للفلسفة، ومؤسسًا ورئيسًا للمركز الأوروبي لدراسة الحجاج (ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، منشورات الاختلاف ومنشورات ضفاف لبنان، ط١، ٢٠١٣م، ص/ ١٠٣).

2-Manuel Maria "Carrilbo de La Problematologie" Dans: Argumentation et questionnement, Sous La direction de Corinne Hoogaert. P.U.F 1996, P:35.

٣ - بلاغة الإقناع في المناظرة، ص/ ١٠٢.

٤ - ينظر: الحجاج والأشكلة في منظور ميشال مايير، أ.د. حفيظ ملواني، جامعة البليدة/ ٢، الجزائر، شبكة ضياء للمؤتمرات والدارسات

٥ - ينظر: الخطاب في الحجاج السياسي المعاصر، د. زكريا السرتي، عالم الكتب الحديث أربد - الأردن ٢٠١٣م، ص/ ٣٢-٣١

6 - Michel Meyer : Logique, langage, et argumentation, Hachette 2 ed, paris 1928, P 136.

"الحجاج هو دراسة الصلة بين المعنى الصريح والمعنى الضمني. وأحسبه التعريف الأكثر عمومية، الذي بإمكاننا أن نعطيه للحجاج"^(١).

ضمن مايرير فكرة المسألة حوارًا مفترضًا، يسهم في حل أزمة العقلنة الذاتية في إدراك حقيقة الأشياء في المباحث اللسانية والبلاغية التي ترى أن الحقائق تتبع من الذات المفكرة وتنتهي عندها، كان ذلك في عام ١٩٨٦م حين قدم جمل من الأفكار الفلسفية، شكّلت فيما بعد أسس نظريته وجوهرها، التي ضمنها في كتابه: (من علم الأشكلة - De La Problematologie)، حيث رفض المعيار القضوي في المعرفة التي تبنته النظرية الديكارتية عبر تبوء الذات المفكرة موقع الضامن والمكون لعملية التفكير، فتلغى المسألة - التي عدها مايرير أصل الفلسفة، وعنه نشأت - وتتبنى فكرة المقتضى الملازمة لـ (لوجوس - Logos) أي ثنائية (اللغة والعقل)، التي تبناها علماء الحجاج المعاصرون في مقارباتهم^(٢)، حيث يعطي اللوجوس شكل المقتضى، فكيف ما كان الخطاب أو المعرفة لا بُدَّ من العودة إلى الذات المتكلمة وهويتها الكاملة^(٣)؛ لأنَّ الاهتمام بالحجاج يرتبط بعددٍ من العوامل، منها ما هو نفسي، ومنها ما هو سوسيولوجي، فـنظرية الحجاج تطورت دائمًا اعتمادًا على عددٍ من الاعتبارات العقلية وفي سياق اجتماعي متميز^(٤).

وكذلك رفض مايرير معيار الأجوبة القبلية، جاعلاً من معياري: (المسألة والاستشكال) ما يفتح طريق البحث والاكتشاف في الفلسفة؛ لأنَّ الأجوبة ليست قبلية، ولا مساوية للأسئلة زمانًا ومكانًا ومحتوى، وإنَّ ظنَّ ذلك في بعض المواقف، بل لا بُدَّ أن تكون هناك مسافة بين الأسئلة والأجوبة، وكذلك بينهما تسابق زمني، يحدداهما الاكتشاف، فـ(الجواب لا يعني اغلاق البحث) بالضرورة^(٥)، بل يفتح آفاقًا جديدةً من المسألة، وهذا ما قال به مايرير ووسمه بـ(الاختلاف الاستشكالي - La difference Problematologique)^(٦) الذي يعني أنَّ السؤال يفتح على أجوبة متنوعة، لا ينتهي عندها التساؤل، ولا يمكن عدُّ السؤال هو الجواب نفسه، بل يُعدُّ السؤال إشكالًا تواصلًا حاجيًا من منظور تساؤلي؛ إذ إنَّ الإقرار بالمسألة كأساسٍ منفردٍ في المحاوره يعني الإقرار بنحوٍ مقطوع ونهائي بأنَّ الأسئلة وحدها هي الأصل في التحاور، تمثل انفتاحًا متعددًا من الأجوبة^(٧).

ولما كانت العقلانية الأوروبية قد تعرضت لانهايات متعددة ومتتالية في القرن العشرين؛ فقد أوعز مايرير سبب ذلك إلى أصل انبناها على أسس ثلاثة، هي: (الحكم، والمقتضى، وعدم التناقض) التي انغرس في صلبها منذ أرسطو، ولمجازة هذه الأزمة؛ اتخذ مايرير (المسألة) حلًا واعدًا لتلك الأزمة على وفق مشروع فلسفي يتجاوز انساقًا فكرية متعددة، بوصف المسألة الوظيفة الأولى للفلسفة. وقد استطاعت هذه النظرية الحاجية أن تتجاوز عقبات كثيرة، كان من أبرزها وأخطرها - في نظر مايرير - فلسفة ميشيل فوكو التي سلطت الضوء على المناطق المحجوبة والمسكوت عنها، كالجنون والسجن والجنسانية، وفلسفة جاك دريدا التي كشفت فضيحة الفكر الأحادي للعقل الغربي عبر مشروع (فكر الاختلاف)، وفلسفة رواد البنيوية التي قزمت الذات المتعالية؛ لتجعلها عنصرًا تزاحمه عناصر أخرى في المعارف^(٨).

لقد مثلت نظرية مايرير في المسألة والبلاغة طفرة نوعية في تحليل الخطاب في مجالي التواصل والاقناع، بوصفها نظرية فلسفية تساؤلية، تعتمد على ثنائية الافتراض والانتظار، وتستند إلى الاختلافات الاستشكالية في التأويل والفهم^(٩)، إذ يمكن أن نفهم

1 - ibid. P 112.

٢ - ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: د. حافضي إسماعيل علوي، عالم الكتل الحديث، أريد - الأردن، ط١، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م) ج١/٣٠-٣١.

3- Michel Meyer De La Problematologie Philosophie, Science el langoge, Paris, Le Livre de Poche, 1994,P 124.

4 - Philippe Breton, Gilles Gauthier: Histoire des theories de loargmentation, LaDecouverte, Reperes: 292. Paris 2000: P 3.

5 - Michel Meyer De La Problematologie Philosophie, p.236.

٦ - ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص: ١٠٤.

7- Michel Meyer De La Problematologie Philosophie, p.35.

٨ - ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص/١٠٣.

٩ - ينظر: عندما نتواصل بغير، ص/١٩٤-١٩٥.

الإقناع في بعده الشامل، أي بوصفه استعمالاً للغة في محاولة لتعديل أو تحويل أو تقوية رؤية المستمع، بما تتضمنه هذه الرؤية من مشاعر ومواقف وطرائق تفكير.

أفاد مايبير من توظيف علوم مختلفة في التواصل والحجاج، وكذلك من النظريات المعرفية والهورمونتিকা^(١) والظاهرية^(٢) في بلاغته الجديدة، وتمكن بوساطة ذلك من إبراز مكونات الخطاب الحجاجي البلاغي الجديدة، حيث لم تعد البلاغة من منظوره مرتبطة بالتعبير والإقناع حسب، بل أصبحت طرحاً اشكالياً لمختلف القضايا والتساؤلات التي عالجتها النظريات المعرفية والتواصلية والفلسفية داخل نظام اللغة وخارجه، أي: كل ما له علاقة بالعقل والذاكرة والمعارف التي تشكل أساس العلائق التخاطبية بين الناس، وهي علائق افتراضية (أسئلة وأجوبة) و (أجوبة وأسئلة) في الوقت نفسه، على اعتبار أن الخطاب مبني أساساً على الاستعمال اللغوي، الذي يثير باستمرار تساؤلات مفترضة، قد يتفق عليها طرفي الحوار، وقد لا يتفقان، لكنها تمثل نقطة الانطلاق للتواصل والتفاهم بين المتخاطبين^(٣).

والجدير بالذكر أن أي فرد يبدأ بالقول والفعل يعطي لنفسه حق المحاجة الذي يُعد جزءاً من اللغة، حينها يرمي إلى إثارة سؤال بوساطة سؤال آخر، ويكون الإقناع فيه مجرد طرح للمشكلات التي يثيرها طرفي التخاطب، وهذا يعني أن الاختلافات الشكلية والمضمونية هي ليست نتيجة حتمية لاختلاف الاستعمالات القولية من قبيل (الخبر والانشاء) أو (التأكيد والاعتراض) وغيرهما، بل إن الاختلاف كامناً في أصل نظام اللغة، كجزء من نظام العالم الاشكالي الذي يبني الفكر، ويشغل ذهن البشري من أجل قول، أو إيجاد شيء ما، وما الاستعمال اللغوي إلا تمثل لهذا الاختلاف الاشكالي^(٤).

ومن الاختلاف الاشكالي الأجوبة المُسَكَّنة أو المُفَجَّمة التي ترد على قول، أو تكون أجوبةً لتساؤلات أو تأتي تعليقات على كلام أو خطاب، توسم بقطعية الدلالة والإيجاز، وتكون عصية عن التنفيذ أو التشكيك، تغلق دائرة الحوار، ولا تخلو من مفارقة أو تهكم، فقد روي أن رجلاً تكلم في مجلس ابن عباس فخلط، فقال ابن عباس: "بكلام مثلك رُزِقَ الصمتُ المحبة"^(٥). تبدو هذه العبارة قطعية الدلالة، مغلقة لنواذير الكلام، توجب الصمت، ففوة تنفيذ العبارة ضغط على مناطق الهشاشة في حجج المتكلم، فضلاً عن فعالية المناورة التي تضمنتها العبارة لتسمح بأنواع من الإجابات المحتملة بما يناسب طرفي الخطاب وظروف الحوار، لتترك الباب مفتوحاً لتساؤلات مختلفة بحسب ثقافة المتلقي.

إن الأصل في اللغة احتواء القيمة ونقلها، فاللغة وعاء يحوي أسمى ما يمكن أن يتعلق به الفرد من معاني، بمعنى أن اللغة قائمة على فقه الكلمة المعبرة عن القيمة، وهذا يعني أن الارتباط متلازم بين اللغة وقيمها، فهي تنشئ متعلميها على إتقان استعمال الكلمات والتراكيب في سياقاتها التعبيرية والقيمية على وفق ضوابط وقواعد محددة، فالبنية اللغوية تؤثر إيجاباً في المتلقي إذا كانت مشحونة بالقيم، وتنحصر أو تصبح غير فعالة أو أداة محايدة إذا خلت وتم إفراغها جزئياً من هذا المضمون على النحو الذي يُلاحظ حديثاً في لغة المحادثة اليومية والإعلام، فاللغة في نظرنا رسالة ووسيلة لنقل القيمة، وليست أداة الاتصال فقط، تدرس لذاتها وفي حد ذاتها^(٦)؛ لأن النتيجة التي تطلبها المحاجج هي إقناع المتلقي من طريق التساؤل الذي ينطق من المبادئ والقضايا المتفق عليها طرفي

١ - الهرمونيكا أو الهارمونيكا في الترجمات الحرفية من الإنجليزية: (Harmonica) هي آلة نفخ موسيقية حرة الريشة، تحوي على عدد من الريش المصنوعة من البرونز أو النحاس الأصفر، مثبتة من جهة واحدة، تنتج نغمة معينة باهتزازها الحر في فتحة ممر هوائي ذي أبعاد مماثلة، مخترعها هو الألماني كريستيان فريدريش لودفيج بوشمان عام ١٨٢١م. (ينظر: موقع إيكبيديا الموسوعة الحرة).

٢ - هي مدرسة فلسفة تعتمد على الخبرة الحسية للظواهر كنقطة بداية (أي ما تمثله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية) ثم تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتها بها. غير أنها لا تدعي التوصل لحقيقة مطلقة مجردة سواء في الميتافيزيقا أو في العلم بل تراهن على فهم نمط حضور الإنسان في العالم. يمكن أن نرصد بداياتها مع هيجل (ينظر: موقع إيكبيديا الموسوعة الحرة).

٣ - ينظر: عندما نتواصل نغير، ص/١٩٥.

٤ - ينظر: المصدر نفسه ١٩٦.

٥ - مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، دار السنة المحمدية (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م) ص/٤٥٨.

٦ - ينظر: فقه اللغة وعنف اللسان في المنطقة العربية، بحث منشور في كتاب اللسان العربي واشكالية التلقي، عبد الرحمن العزي / ١٤، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، رقم / ٥٥، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧م.

التخاطب، فحين يطرح الخطيب تساؤلاً يعتقد أن المتلقي يمكنه الإجابة عنه بسهولة ويسر؛ مما يمنح مسار التخاطب الاستمرار على وفق ما يريده الخطيب، فتصبح إجابات المتلقي بمنزلة الحجج الملزمة لإذعانه ومن ثم إقناعه^(١)؛ لذا ينبغي لنا البحث عن الاتفاقات السابقة والسنن المشتركة التي سيقوم عليها الحجاج، وإلا فإنَّ الحجاج سيكون مصادرة على المطلوب، ولا يؤدي وظيفته الحجاجية الأساسية.

يُعدُّ المتلقي مكوناً أساسياً في العمليات التخاطبية والتواصلية، وموجهاً ضرورياً بطبيعتها وأهدافها^(٢)؛ إذ إنَّ عملية التأثير في المتلقي تتوقف من جانب آخر على موقع المتلقي من هذه العملية، فكيف لنا أن نعتقد أنَّما ينتجه الخطيب من بني لغوية ذات أفكار ومضامين مفيدة أو غير مفيدة؟ إنَّ الجواب عن هذا السؤال يتطلب البحث عن اقتضاءات مشتركة داخل فضاء المتلقي، من شأنها أن تخلق آثاراً مشتركة بين المتخاطبين.

فنجاح هذه النوع من التحوار يؤدي بالنتيجة إلى تقارب ملحوظ بين طرفي الخطاب، يصل في بعض الحالات إلى مبدأ التعاقد بينهما، حيث يفترض هذا النوع وجود معرفة مسبقة ومشتركة للآخر في الخطاب، كأن يكون تساؤل المتكلم أداة لإثارة أسئلة أخرى لدى المتلقي، وليس القصد البحث عن جواب، بحيث تكون الأسئلة المطروحة والضمنية موجهة لإشراك المخاطب ومساعدته على طرح الأسئلة الممكنة، المساعدة على تيسير عملية الإقناع، عبر آلية الاستنتاج الذكي، بحيث يستدرج المتكلم المخاطب بسلسلة من المعلومات التساؤلية؛ للإيقاع به، ومعرفة ما يخفيه، ويمتنع من البوح به، من حيث لا يعلم، وكثير ما نجد تمثلات ذلك في المقابلات السياسية؛ لاستدرج سياسيٍّ إلى الاعتراف بأمرٍ يدعي أنه لم يقم به^(٣).

إنَّ البحث في موقع المتلقي في الحوار الحجاجي يلغي تقريباً الطرائق المعيارية، وينتج طرائق متنوعة، تتلاءم والوضع التواصلية المطلوب في عمليات التأثير والإقناع، فضلاً عن الشروط المجالية؛ ذلك أنَّ بناء العمليات الحجاجية يستوجب منذ البداية عدَّ المتلقي عنصراً رئيساً في التحوار؛ ممَّا يقتضي الاهتمام به، والبحث فيه؛ لتعلق إشكالية إنتاج اللغة داخل السياق التواصلية بقضية إقناع المتلقي على نحو رئيس، إذ لا تتحدد قضية الإقناع في ذاتها، إنَّما هي رهان يؤسس قاعدة الحجاج داخل اقتضاءات مجالية متنوعة، يتمتع بها المخاطبون بقسط من الحرية، فإنَّ ما يطرحه ويدافع عنه الخطيب لم يكن سوى قول نظري خالص، فارغ من سلطة الإقناع، فالحرية هنا شرط أساسي، ينبغي لنا استحضاره في كلِّ مقاربة خطابية^(٤).

المبحث الثاني/ الأسس النظرية لـ(نظرية المسألة والبلاغة) وتمثلاتها العملية

يمثل هذا المبحث تفسيراً لركائز نظرية (المسألة والبلاغة) التي بُنيت على ثلاثة أسس معرفية، هي:

١ - المسألة والاستشكال:

يرى مايير أنَّ المسألة خاصية متأصلة ومتجذرة في نظام اللغة، فهو يتابع ديكر الذي ربط الحجاج ببنية اللغة^(٥)، حيث تطبع كلُّ الانجازات التلفظية، والمبادرات الكلامية، فما دام الاختلاف الاستشكالي مكوناً من أسئلة وأجوبة، فهذا يعني أنَّ النشاط الخطابي ليس إلا مساراً للمساءلة، أي: إنَّ اللغة إثارة للسؤال، ومقاربة لما هو مشكل. ومن هنا؛ ربط مايير بين السؤال والمشكل، وعدهما متماهين^(٦)، ونتيجة لهذا الربط الذي ينماز به تفكير الإنسان، والذي يجسده قوله في علاقاته التخاطبية مع الآخرين، لا يلبث أن تنقلص حدته، وتخفي أعراضه، فالإنسان لا يتواصل؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ عنده محط اختلاف مع الآخر، أو؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ جلي وواضح، وإنما يتواصل ليوضح الأشياء الغامضة، أو ليحلَّ الإشكالات المعلقة بالذهن، أو لي طرح أسئلته ومشكلاته. إنه يتواصل كي يجد القواسم

١ - ينظر: دائرة الأعمال اللغوية، مراجعات ومقترحات، د. شكري المبخوت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت - لبنان، ٢٠١٠م، ص/ ١٩٧.

٢ - ينظر: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، د. عبد السلام عشير ٢١، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦ م.

٣ - ينظر: من أجل مقاربة تبادلية حجاجية للحوار، حل النزاع أنموذجاً، أحمد بوعنان، (بحث) منشور في مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد السابع، خريف/ شتاء ٢٠١٦/ الرباط، ص/ ١٥.

٤ - ينظر: عندما نتواصل نغير / ٢٢.

5 - Michel Meyer De La Problematologie Philosophie, P,238.

٦ - ينظر: المصدر نفسه، ص/ ١٠٦.

المشتركة التي تفرضها الطبيعة التواصلية الإنسانية^(١). فكلُّ سؤالٍ يُطرح؛ يستوجب بالضرورة اتخاذ قرار اتجاهه، بوصفه خاصية استشكالية تمثل الإطار العام للنشاط البشري، فالناس يعيشون، ويتحركون بارتباطٍ مع المشكلات والأسئلة التي تُطرح عليهم أو يلاقونها، ممّا يجعل من استعمال اللغة حلّاً لمشكلاتهم العالقة بالذهن^(٢).

ويظهر لنا ممّا تقدم أنّ ماير من اللسانيين الثنائيين، إي: إنّ اللغة عنده تفسر بعبارات ثنائية متقابلة، يتشكل بها القول الحجاجي، منها: (السؤال والجواب) و(الحقيقة والمجاز)، و(الافتراض واليقين)، و(الاستعمال والابتكار) و(السلطة المجازية والسلطة المادية) فهو بذلك يتابع أسلافه الثنائيين: ك(دي سوسير، وبلومفيلد، وتشومسكي، وفيرث...)، وغيرهم ممن فسروا الظاهرة اللغوية بثنائيات تقابلية، إذ تندرج ثنائية (السؤال والجواب) ضمن الاسهامات التنظيرية المعاصرة لأبعاد اللغة ووظائف الكلام، والتي "تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى، المرتبطة بالسؤال أشدّ الارتباط، وبالسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتظافر المقاصد التداولية (ظروف انجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية الحجاجية أساساً في تحقيقها"^(٣).

٢- المساءلة والحجاج:

لم يقف ماير عند حدود الاستلزام للإرث الأرسطي، وإسهامات بيرلمان على الرغم من استناده إليهما، إذ نجده قد وظفهما خير توظيف بما يتلاءم ونظريته الجديدة في المسألة والبلاغة، فلم يكتفِ بتقسيمات أرسطو لمقومات الاقناع الخطابي: (الاثيوس، والباتوس، واللوغوس)^(٤)، بل أحدث فيها تعديلاً؛ فجعلها أكثر تركيزاً في نظريته، حين صنفها على ثلاثة أركان، هي: (الأخلاق، السؤال، الجواب). فجعل الركنين الأخيرين يمثلان الاستشكال.

أما بيرلمان؛ فقد قدم طرحاً تصورياً للإرث الأرسطي حين انشغل بمبدأ: (الانخراط - Adhesion)، لكنه لا يرقى لما قدمه ماير من تصور أعمق حين انشغل بمبدأ: (المفاوضة - Negotiation) مختزلاً العناصر الثلاثة بعنصرين أساسيين، هما: عنصر الاثيوس (الأخلاق والصفات) وعنصر العلاقة الثنائية التي تجمع بين المتكلم والمتلقي، والتي يحددها اللوغوس في (الخطاب/ الشكل)، إذ يُعدُّ هذا التصور الوظيفي للحجاج تجاوزاً للفهم التقليدي (أرسطو وبيرلمان) الذي ينحصر في وظيفة تحقق الاستمالة والاقناع، "تصور جديد يركز على العلاقة الثنائية بين المتكلم والمستمع بوصفها مكوناً أساسياً في العملية الحجاجية، يهدف إلى تهئئ الفضاء الأصح لإثارة السؤال، وإذكاء المسألة القائمة باستمرار على الحجاج، باعتباره مفاوضة لتقريب المسافة وتكثيفها حسب مقاصد المقام والسياق"^(٥).

٣- المساءلة والحوار:

يُعدُّ الحوار من أبرز مستويات الخطاب البلاغي التي يتجلى فيها التساؤل الحجاجي، وهي العلاقة التخاطبية بين المُخاطب والمُخاطَب، التي تتغيّر وتتوّع فيها الأداءات في ظاهرتي:

أ- التشخيص: ويتجسد في خاصية تلفظية، تتميز بحدّة العلاقة التخاطبية مع الشريك.

ت- المقام: هو مفهوم تجريدي يدلُّ على الموقف التواصلية، وتلتقي فيه جميع العناصر الحجاجية من قدرات برهانية، وحقائق فعلية، وقرائن بلاغية. والمقام شرط تداولي بلاغي مؤثر في الأداءات؛ لأنّه يُعنى بضرورة موافقة أفعال القول لمقتضى الحال، والموقف الخاص به، وهذا ما ذهب إليه الجاحظ من قبل حينما قال: "مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم

١ - ينظر: عندما نتواصل نغير، ص/ ١٠٧.

٢ - ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص/ ١٠٦.

٣ - أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٩٨م، ص/ ٤٠١.

٤ - (الاثيوس - LE ETHOS) وتعني خصال الخطيب وأخلاقه، أما (الباتوس - LE PATHOS): فتعني المشاعر والاحاسيس والانفعالات المثارة لدى الجمهور، في حين يعني (اللوغوس) ما هو متعلق بشكل الخطاب المنذور للاستمالة والتأثير. (ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة، ص/ ١٠٧)

٥ - عندما نتواصل نغير، ص/ ٢٠٥.

والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع^(١)، فالأمر يتعلق أساساً بإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر، انطلاقاً من الوظيفة الرئيسة للغة، وهي التواصل. وضع كل من (مايبر) و(بيرلمان) مفهوماً جديداً للحجاج، جمعا فيه ملكة اللغة، وهي ملكة يشترك فيها العام والخاص من الناس، وملكة الكلام المتمثلة في الخطاب، وهي فردية، وملكة الإقناع، وهي ملكة يتمتع بها النخبة الخاصة من الناس، فعبارة عن ذلك بأن الحجاج غالباً يُعَدُّ جهداً إقناعياً (إفهامياً)، ويُعَدُّ البُعدُ الحجاجيُّ بُعداً جوهرياً في اللغة، لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه، ويدل هذا على أن نجاح الخطاب يكمن في مدى توافقه مع السامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستعملة على إقناعه، فضلاً عن استثمار الناحية النفسية في المستقبل من أجل تحقيق التأثير المطلوب فيه. ويمثل هذا المفهوم بُعداً جديداً للخطابة الأرسطية، فهو يزاوج بين مفهوم الخطابة عند أرسطو والطرح اللساني التداولي للحجاج^(٢).

ومن هنا عرفوا البلاغة الجديدة (المعاصرة) المبنية على فني: (الإقناع والإمتاع) بأنها "تقنيات خطابية قادرة على التأثير"^(٣)، بوصفها "فنًا للإقناع بطريق الخطاب"^(٤)، وبوصفها "وسائل لفظية مؤثرة، حاملة على اعتقاد وجهة نظر، أو تعديلها، أو توجيه الآخرين إلى تأملها"^(٥) أو أنها "مسافة تخاطبية تزيد أو تنقص بحسب المقاصد"^(٦)، أو أنها "صناعة تفيد قوة الإفهام على ما يريده الإنسان، أو يُراد منه، بتمكين من إيقاع التصديق به، وإذعان النفس له"^(٧).

وفي الوقت الذي ركز فيه مايبر على الفصاحة بوصفها تجليات للبلاغة الجديدة، لا نجد له تقريباً بين الحجاج والبلاغة، فهو يهتم بجميع مزايا الخطاب وأخلاقيات التحاور، ولا سيما أخلاقيات عنصر الخطيب الترقينها بما يأتي:

١- تحقيق الإقناع والافتناع، وخلق القبول والتصديق.

٢- الأعجاب، والتلاعب أو الإغواء مع تسويغ الأفكار من أجل تمريرها على المتلقي، سواء كانت حقيقية أو يظن أنها حقيقية.

٣- تمرير الأفكار المحتملة أو القريبة من الحق بعلل جيدة واستدلالات لامعة.

٤- الإيحاء بالضماني بوساطة التصريح.

٥- إنشاء المعنى المجازي واستنتاجه من المعنى الحرفي، واستعمال صور اسلوبية، وتوظيف الحكايات؛ لغرض الإقناع.

٦- اكتشاف المقاصد والنيات من الكلام أو المكتوب^(٨).

طرح مايبر ثنائية (الهوية والاختلاف) لبناء سلسلة حوارية ذات بُعد حجاجي، تساعد هذه الثنائية على تقريب المسافة الحجاجية في كل العلاقات البينية بين المتخاطبين، وعبر مرحلتين مهمتين تراتبياً، هما:

المرحلة الأولى: في أثناء السلسلة الحجاجية يعتمد المتكلم على الهوية لتقريب العواطف والاحاسيس المشتركة، وذلك بالاعتماد على مبدأ التماثل والمشابهة الذي يحصل بين المتكلم والمخاطب؛ لاعتماد على رزمة من القيم والمعتقدات والمشاركات الأخرى، قاصداً من ذلك اذعان المخاطب لمضمون القول الذي قدمه المتكلم تمثلاً وتصديقاً، كمسلمة تخاطبية؛ إذ من شأن الاهتمام بهوية المتلقي في هذه المرحلة أن يقودنا إلى الحديث عن الجماعات اللغوية؛ لأنها جماعات بينها تفاهم لغوي، يمكن ربطه بعناصر اجتماعية أخرى، كمستوى العيش، والسكن، والنشاط المهني ... وسواها، وفي هذا المرحلة تتجزئ كثير من الوظائف الاجتماعية؛ لأن اللغة إن كانت تصلح للتواصل فهي تصلح أيضاً للوجود، فالفرد يشيد هويته داخل هذه العلاقة من التواصل والوجود، عبر هيكلة وجوده الاجتماعي؛ إذ تدخله اللغة في عملية مزدوجة: يُعترف له بهوية عضو داخل المجتمع، ويحصل على اعترافٍ مقابل قبول قانون الجماعة.

١ - البيان والتبيين، الجاحظ، ج ١/ ٥٦.

٢ - ينظر: الحجاج في اللسانيات التداولية، بن أحمد عالم فايزة، بحث.

3- chaim perelman . Leman rhetorique . vrin , 2002, p28.

4- Olivier Reboul . Introduction a la rhetorique. PUF, 1991, p.4.

5- Ruth Amossy . Largumentation dans la discours . Nathan , 2000, p. 29.

6- Michel Meyer . principia Rhetorica . fayard , 2008, p.21.

٧ - التلقي والتأويل (مقاربة نسقية)، محمد مفتاح، ص/ ٣٤ .

8 - Philippe Breton, P: 105-106.

وتثير قضية الإقناع إشكالات أخرى تتعلق بمضمون ما يمكن إيصاله للمتلقى، فقد يكون معنى أو قضية أو فكرة أو فرضية أو خبراً أو اقتراحاً أو اعتقاداً أو موقفاً أو شعوراً... وسواها من المعلومات القيميّة، ذلك أنّ العلامات اللغويّة تتجاوز نقل المضمون، إلى نقل إحياءات المعاني وظلالها، التي سبق لها أن انطبعت في أذهان المتلقين عبر تجاربهم، فارتبطت بعواطفهم، وتداخلت مع مشاعرهم، وكونت تطلعاتهم ورغباتهم، بل شكّلت نظرتهم للعالم وللآخرين، وتمثّلت بوضوح بهويّتهم^(١).

المرحلة الثانية: يعتمد المتكلم على تصريح أو اعتراف أو حجة، لا يمكن للمخاطب دحضها؛ لأنها مدعومة بالدليل. وهنا تضعف قوة الاختلاف النوعي الذي يعبر عنه أحد المتحاورين أو كلاهما بتوظيف كلّ أشكال التعارض والتباين، المتمثلة بألوان المروعة، والاقصاء، والتسلط، وهو الوضع الذي تكون عليه ما يسمى بـ (التبادلات المنعكسة – Croisees Transactions) بحيث يمارس فعل الاختلاف والتباين بنحو واضح وصريح^(٢)؛ إذ لا تتحدد قضية الإقناع في ذاتها، إنّما هي رهان يؤسس قاعدة الحجاج داخل اقتضاءات مجالية متنوعة، يتمتع بها المخاطبون بقسط من الحرية، فإنّ ما يطرحه ويدافع عنه الخطيب لم يكن سوى قول نظريّ خالص، فارغ من سلطة الإقناع، فالحرية هنا شرط أساسي، ينبغي لنا استحضاره في كلّ مقارنة خطابية^(٣).

وخير تمثيل عمليّ على ذلك؛ حوار الإمام (عليه السلام) مع شريح بن الحارث قاضيه الذي اشترى داراً بثمانين ديناراً، فبلغ ذلك الإمام علي (عليه السلام)، فاستدعى شريحاً، فقال له: " بلغني أنّك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيها شهوداً"، فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، فنظر (عليه السلام) نظرة المغضب، ثم قال له: " يا شريح: أما إنّهُ سيأتيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصًا، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصًا، فَانْظُرْ يَا شَرِيحُ: لَا تَكُونُ ابْتِغَتْ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ، فَإِذَا أَنتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكِتَابًا عَلَى هَذِهِ النُّسخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ"^(٤).

لم يغادر الإمام (عليه السلام) استعمال الوسيلة الرمزية (العلامة البصرية) الدالة على الإنكار، حينما نظر إلى شريح نظرة المغضب، تلك النظرة التي تمثل سمة من سمات الحجاج المؤثر في إنكار الأمر المستهجن، المبني - في عمومها - على طرح يعيد قضية معينة، تستدعي من المحاجج اتخاذ موقف بصددها، بتقديم منظوره الخاص، ومحاولة إحداث التأثير المراد في المخاطب بوصفه (النتيجة) الطبيعية للمحاجة، ما لم تتأ عن هذه الوجهة، وما دام ينتظمها مسار استدلالّي، تبنيه قوانين الانتقال (القياس، والمقاييس، والمفارقة... وسواها)، فقد تكون ذات موجّهات شبيهة بالمنطق، تستند إلى صرامة الأدلة ونسبية الحجج^(٥).

ونستنتج بُعداً اجتماعياً من الإشارات اللغويّة الرامزة للعلاقة الرسميّة بين المتخاطبين، إذ إنّ التركيب الدال على صيغة التبجيل في قول شريح يا أمير المؤمنين يرمز إلى التفاوت المقامي بين الخطيب والمخاطب، مع مراعاة المسافة الاجتماعيّة التي أوجبت على شريح استعمال اللقب أو النعت، فبالاستعمال الإمام (عليه السلام) النداء بالاسم المجرد، للدلالة على نوع تلك العلاقة من جهة الفوقيّة والتحتيّة، فمسألة تحديد نوع العلاقة الاجتماعيّة بين أطراف الخطاب مسألة نسبيّة تختلف من موقف إلى آخر، من حيث قرب الأطراف أو بعدهم، أو تفاوتهم أو تساويهم في الوظيفة والرتبة، سواء أ كان هذا التفاوت في القرب والبعد والتساوي مادياً أم نفسياً، فإنّها تدلّ على التفاوت المقامي بين المتخاطبين.

رأى مايبير أنّ الحجاج لا يقتصر على ظاهر النصّ وحده أو المضمون وحده، بل يتعداهما إلى دراسة تلك العلاقة التي جمعت بينهما في سياق معين، لذلك يستوجب الوقوف عليه، والبحث عن دلالة الاقتضاء للملفوظات التي ترمي إلى الإقناع أو التنفيذ. ورأى أنّ مفهوم الحجاج متصل " بتحديد طبيعة الكلام في وظيفته التساؤلية، ذلك أنّ المسألة من حيث هي عملية فكرية مؤسسة على سؤال

١ - ينظر: عندما نتواصل نغير / ٣٨.

٢ - ينظر: من أجل مقارنة تبادلية حجاجية للحوار: حل النزاع أنموذجاً، أحمد بوعنان، بحث منشور في مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد السابع، خريف/ شتاء- ٢٠١٦م، ص/ ١٦.

٣ - ينظر: عندما نتواصل نغير / ٢٢.

٤ - نهج البلاغة، كتاب / ٣ / ٣٦٦.

٥ - ينظر: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، أمينة الدهري/ ٢٣، شركة النشر والتوزيع المدارس - الدار البيضاء، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

وجواب تستدعي نقاشاً، يولد حجاجاً، ويبدو أنَّ المحاجة موجودة بقوة في التداول اللغوي، إذ لا يخلو خطاب منها، سواء كان شفوياً أم كتابياً، وربما قدم الحجاج على مظهرين لغويين، أحدهما: مصرح به، وهو السؤال، وثانيهما: ضمنيّ تعبر عنه الإمكانات المقترحة، كإجابات قابلة للاستبدال فيما بينها، وتأخذ هذه الإجابات شكلاً تعبيرياً مميزاً، له وقعه وأثره البلاغيّ في المتلقي، فقد ترد الإجابة في شكل صورة مجازية لها وقعها على المتلقي^(١) كما في تصوير الإمام علي (عليه السلام) لشريح مجازاً دار القبر قائلاً: "هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أَرْعَجَ لِلرَّحِيلِ؛ اشْتَرَى مِنْهُ دَارًا مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ، وَخِطَّةَ الْهَالِكِينَ، وَتَجَمَّعَ هَذِهِ الدَّارُ حُدُودُ أَرْبَعَةٍ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّلَاثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرِيدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي..."^(٢).

وهذا يعني أنَّ الحجاج ضربان: صريح وضمني، ذلك أنَّ طبيعته الخطابية الحوارية تجعل نصفه للمتكلم، وهو النصف المصرح به، ونصفه للسامع، وهو النصف الضمني، فتكون علاقة الضمنيّ بالصريح مندرجة في إطار (تداولية مندمجة - Pragmatique intégrée) تجمع بين لسانيات اللغة على نحو ما هو عند سوسير من ناحية، وعناصر المقام (السياق) ومعطياته من ناحية أخرى^(٣).

ومن جانب آخر تمنح المسألة للمعرفة صفة التعدد، على اعتبار أنها تقوم أساساً على الآخر، فتمنحه حرية التعدد في الأجوبة، حيث يولد السؤال خيارات متنوعة من الإجابة، وهذه الإجابات لا تفتأ حتى تتفتح، وتتطور، وتنتج بدائل عبر سلسلة من الامتدادات المتوقعة من المتلقين، فهي تمثلات راجعة ليست منجزة، ولا قارة بحالٍ من الأحوال، ممّا تمنح الحوار حركية دائمة ومستمرة، وتجعل طرفي الحوار في حركة دؤوبة في انتاج الاشكالات، واستخلاص الاستنتاجات، من أجل بلوغ التواصل والاقناع، فالمسألة بهذا التوظيف تمنح "الثقافة المعاصرة تعدد المعاني"^(٤)؛ لأنَّ تناوب الأسئلة والأجوبة، والإقرار والاعتراض، والفهم والتفسير، تجعل الفعالية الحوارية في حركة دؤوبة، تنتج المحاججات، وتطور المناقشات، ويكون الحوار مشتركاً بين أطرافه، لذلك عبر مايير بقوله: "حيثما يوجد سؤال كامن؛ فثمة نقاش"^(٥)؛ لأنَّ المسألة الحجاجية لا تبحث عن مجهول، ولا تستعلم عن خبر، وإنما هي وسيلة إقناعية حجاجية، تمنح الخطاب قوة محرّكة^(٦).

وهذا المفهوم يسحبنا إلى (أسلوب الحكيم) في البلاغة العربية الذي ينصب على "تلقي المخاطب بغير ما يترقب ... أو السائل بغير ما يتطلب"^(٧)، وفي اصطلاحات الجرجاني هو: عبارة عن ذكر الأهم تعريضاً للمتكلم على تركه للأهم^(٨) كما في قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) طه/١٠٥، فمراد السائل موجةً إلى الماهية والكينونة، عن حقيقة الجبال، لكن الجواب على ظاهر السؤال جاء مخالفاً لمراد السائل، وهو (ينسفها ربي نسفاً) بمعنى أنَّ هذه الجبال على عظمتها وضخامتها، ينسفها ربي نسفاً، فقد ارتكزت الإجابة على بيان صفات الله تعالى؛ مما انتج كسراً جلياً في أفق توقع السائل يدفعه إلى مساءلة خطابه الأصلي، والتأمل في الإجابة المغايرة لأفق توقّعه.

ونحو قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمن سأله عن المسافة بين السماء والأرض؛ فقال: «دعوة مستجابة»^(٩). السائل يسأل عن المسافة القياسية بين السماء والأرض، والفضول ظاهر في السؤال. ولكن الإمام (عليه السلام) تجاهل

١ - لسانيات التلطف وتداولية الخطاب، ذهيبه حمو الحاج، ص/١.

٢ - نهج البلاغة، كتاب/ ٣/ ٣٦٦.

٣ - ينظر: الحجاج في اللسانيات التداولية- دراسة لنماذج من القرآن الكريم، بن أحمد عالم فايزة، بحث.

4- Michel Meyer De La Problematologie Philosophie, P. 131.

5 - Ibid. P. 259.

٦ - ينظر: بنى الحجاج في نهج البلاغة دراسة لسانية، د. علي عبد الوهاب عباس، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، ط١، ٢٠١٧، ص/١٥٠.

٧ - مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص/٣٢٧.

٨ - ينظر التعريفات، الجرجاني

٩ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، ج ١٩/ ١٩٩.

مراد السائل، وإجابته عن ظاهر سؤاله، فقال: «دعوة مستجابة». ليضع السائل أمام تساؤلٍ جديدٍ؛ ليعيد تنظيم الكلام على وفق خطابه الأصلي.

والظاهر أنَّ علة العدول عن الإجابة المتوقعة ينجز عبر تأويل إعادة أغراض الكلام، وينسب عادة هذا الفعل للمخاطب تمتعه بكفاية تواصلية خاصة، أو حكمة ثاقبة تمكنه من إحداث مثل هذا التحول الجذري في مسار الخطاب.

خاتمة بأهم النتائج:

- ١- مفهوم الحجاج عند مايير لا يخرج عن السمة الاجتماعية، كونه عقلياً استدلالياً من جهة، وتواصلياً إقناعياً من جهة أخرى، تحت مبدأ أنَّ الجواب هو سؤالٌ مفترضٌ في نفسه، موجةٌ لجمهور المتلقين.
- ٢- رفض مايير المعيار القضوي في المعرفة التي تبنته النظرية الديكارتية عبر تبوء الذات المفكرة موقع الضامن والمكُون لعملية التفكير، فتلغي المسألة - التي عدها مايير أصل الفلسفة، وعنه نشأت - وتتبنى فكرة المقتضى الملازمة لـ (لوجوس - Logos) أي ثنائية (اللغة والعقل)، التي تنبأها علماء الحجاج المعاصرون في مقارباتهم.
- ٣- رفض مايير معيار الأجوبة القبلية، جاعلاً من معياري: (المسألة والاستشكال) ما يفتح طريق البحث والاكتشاف في الفلسفة؛ لأنَّ الأجوبة ليست قبلية، ولا مساوية للأسئلة زماناً ومكاناً ومحتوى، وإنَّ ظنَّ ذلك في بعض المواقف، بل لا بُدَّ أن تكون هناك مسافة بين الأسئلة والأجوبة، وكذلك بينهما تسابق زمني، يحددهما الاكتشاف.
- ٤- مثلت نظرية مايير في المسألة والبلاغة طفرة نوعية في تحليل الخطاب في مجالي التواصل والإقناع، بوصفها نظرية فلسفية تساؤلية، تعتمد على ثنائية الافتراض والانتظار، وتستند إلى الاختلافات الاستشكالية في التأويل والفهم.
- ٥- أفاد مايير من توظيف علوم مختلفة في التواصل والحجاج، وكذلك من النظريات المعرفية والهيومونيك والظاهرانية في بلاغته الجديدة، وتمكن بواسطة ذلك من إبراز مكونات الخطاب الحجاجي البلاغي الجديدة، حيث لم تعد البلاغة من منظوره مرتبطة بالتعبير والإقناع حسب، بل أصبحت طرحاً اشكالياً لمختلف القضايا والتساؤلات التي عالجتها النظريات المعرفية والتواصلية والفلسفية داخل نظام اللغة وخارجه.
- ٦- يُعدُّ المتلقي مكوناً أساسياً في العمليات التخاطبية والتواصلية، وموجهاً ضرورياً بطبيعتها وأهدافها؛ إذ إنَّ عملية التأثير في المتلقي تتوقف من جانب آخر على موقع المتلقي من هذه العملية، فكيف لنا أن نعتقد أنَّما ينتجه الخطيب من بنى لغوية ذات أفكار ومضامين مفيدة أو غير مفيدة؟ إنَّ الجواب عن هذا السؤال يتطلب البحث عن اقتضاءات مشتركة داخل فضاء المتلقي، من شأنها أن تخلق آثاراً مشتركة بين المتخاطبين.
- ٧- إنَّ البحث في موقع المتلقي في الحوار الحجاجي يلغي تقريباً الطرائق المعيارية، وينتج طرائق متنوعة، تتلاءم والوضع التواصلية المطلوب في عمليات التأثير والإقناع، فضلاً عن الشروط المجالية؛ ذلك أنَّ بناء العمليات الحجاجية يستوجب منذ البداية عدَّ المتلقي عنصراً رئيساً في التحوار.
- ٨- يُعدُّ ميشيل مايير من اللسانيين الثنائيين، الذين فسروا نظرياتهم اللغوية على أساس من الثنائيات، فثنائيته هي: (السؤال والجواب) متابعاً أسلافه الثنائيين: (دي سوسير، وبلومفيلد، وتشومسكي، وفيرث) وغيرهم ممن فسروا الظاهرة اللغوية بثنائيات تقابلية، إذ تندرج ثنائية (السؤال والجواب) ضمن الاسهامات التنظيرية المعاصرة لأبعاد اللغة ووظائف الكلام.

المصادر والمراجع:

١. اهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٩٨م.
٢. بلاغة الاقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، منشورات الاختلاف ومنشورات ضفاف لبنان، ط١، ٢٠١٣م.
٣. بنى الحجاج في نهج البلاغة دراسة لسانية، د. علي عبد الوهاب عباس، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، ط١، ٢٠١٧.
٤. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: د.حسن السندوبي، المطبعة التجارية الكبرى، ط١، ١٩٢٦م.
٥. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٦. التلقي والتأويل، مقارنة نسقية، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٧. الحجاج في اللسانيات التداولية- دراسة لنماذج من القرآن الكريم، بن أحمد عالم فايزة، جامعة مستغانم، الجزائر، بحث منشور في مجلة (الكلمة)، العدد/٧٥، مركز آفاق للدراسات، منشور على شبكة الانترنت، موقع المجلة.
٨. الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: د. حافظي إسماعيل علوي، عالم الكتل الحديث، أريد - الأردن، ط١، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).
٩. الحجاج والأشكلة في منظور ميشبل مايير، أ.د. حفيظ ملواني، جامعة البليدة/ ٢، الجزائر، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات.
١٠. الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، أمينة الدهري، شركة النشر والتوزيع المدارس - الدار البيضاء، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١١. الخطاب في الحجاج السياسي المعاصر، د. زكريا السرتي، عالم الكتب الحديث أريد - الأردن ٢٠١٣.
١٢. دائرة الأعمال اللغوية، مراجعات ومقترحات، د. شكري المبخوت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.
١٣. شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي (ت/٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار أحياء التراث العربي، ط٢، ج١-ج٧ (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م)، ج٨ (١٣٨٦هـ-١٩٦٦م)، ج٩-ج١٠ (١٣٨٦هـ-١٩٦٧م)، ج٢٠ (١٣٨٧هـ-١٩٦٦).
١٤. عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، د. عبد السلام عشير ٢١، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م.
١٥. فقه اللغة وعنف اللسان في المنطقة العربية، بحث منشور في كتاب اللسان العربي واشكالية التلقي، عبد الرحمن العزي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، رقم/٥٥، ط١، بيروت، ٢٠٠٧م.
١٦. لسانيات التلطف وتداولية الخطاب، ذهية حمو الحاج.
١٧. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، دار السنة المحمدية (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م).
١٨. مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩. من أجل مقارنة تبادلية حجاجية للحوار: حل النزاع أنموذجاً، أحمد بوعنان، بحث منشور في مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد السابع، خريف/ شتاء - ٢٠١٦م.
٢٠. من أجل مقارنة تبادلية حجاجية للحوار، حل النزاع أنموذجاً، أحمد بوعنان، (بحث) منشور في مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد الشايع، خريف/ شتاء ٢٠١٦/ الرباط.
٢١. موقع ايكبيديا الموسوعة الحرة، الشبكة العنكبوتية.

٢٢. نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ضبط نصّه: د.صباحي الصالح، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، ط٣ (١٤٢٦ق-١٣٨٤ش).

المصادر الأجنبية:

1. Philippe Breton, Gilles Gauthier: Histoire des theories de loargmentation, op, cit.
2. chaim perelman . Leman rhetorique . vrin, 2002 .
3. Olivier Reboul . Introduction a la rhetorique. PUF, 1991.
4. Ruth Amossy . Largumentation dans la discours . Nathan, 2000.
5. Michel Meyer . principia Rhetorica . fayard, 2008.Michel Meyer De La Problematologie Philosophie, Science el langoge, Paris, Le Livre de Pocge, 1994.
6. Philippe Breton, Gilles Gauthier: Histoire des theories de loargmentation, LaDecouverte, Reperes: 292. Paris 2000.
7. Manuel Maria "Carrilbo de La Problematologie" Dans: Argumentation et questionnement, Sous La direction de Corinne Hoogaert. P.U.F 1996.
8. Michel Meyer: Logique, langage, et argumentation, Hachette 2 ed, paris 1928.